الأديب المسلم .. بين الالتزام والإبداع

بقلم: عبدالعزيز أحمد الرفاعي

أعرف أن هناك من النقاد من حاول أن يقول: إن الأخلاقيات التي فرضها الإسلام على الفرد المسلم ضيقت دائرة الإبداع، أو حجرته، فقد حرم الإسلام الخمر، كما حرم العبث بالمرأة عبثا يهدر كرامتها وحصانتها، ويحولها إلى سلعة مباحة.

والقائلون بهذا الرأي كأنما يذهبون إلى القول بأن الشعر نبات شيطاني لا ينبت إلا في طينة رطبة لزجة.

والقائلون بهذا الرأي يغفلون عن حقائق كثيرة رغم وضوحها.. يأتي في مقدمتها أن من بين شعراء المعلقات من كانت له أخلاقيات رفيعة.. وأن هذه الأخلاقيات لم تحل بينه وبين الإبداع.. تماما كما جاء في العصور الإسلامية شعراء كبار، لم تلعب الخمر بألبابهم.. وليس للعبة المرأة في حياتهم مكان كبير. ويغفلون عن حقيقة أخرى هي أنه حينما أخذ اللهو والمجون طريقه إلى المجتمع الإسلامي، في بعض طبقاته وشاع شيء من الترخص في سماع شعر اللغو، مرويا أو مغنى.. أتاح له ذلك ألوانا من الإبداع.. ومن المؤكد أنه يعد مسؤولا عن تحويل بعض المواهب من طرق الجد إلى طرق الهزل واللهو.. أقول: حينما حدث ذلك، لم يُحل دون إبداع الجادين الملتزمين.

ولا ينبغي أن ننسى أن المواهب قد تتجمع فترة زمنية، ثم لا يتاح تجمعها بنفس الحجم في فترات أخرى.. وذلك ما حصل حقا في العهد الجاهلي، وهو عهد تعددت فيه الأجيال.. كالذي حدث في الفترة التي نسميها الآن عصر العمالقة، أو عهد العمالقة، التي ضمت فطاحلة الأدب والشعر من أضراب شوقي، وحافظ، وطه حسين، والعقاد.. إلى آخر السلسلة الطويلة من أفذاذ الرجال.

والقول بتجمع المواهب، لا يلغي القول بتأثير الظروف والمناخ الفكري والثقافي ولكن هذا التأثير لا يصنع المواهب وإنما يبرزها ويصقلها.

❖ ❖ ❖

لعل فيما أسلفت من حديث، ما يصلح أن يكون دهليزا للأهداف التي أود الوصول إليها.

ولعلي أردت الوصول بطريقة عفوية، غير منسقة، إلى أن أقول: إن هناك فكرة خاطئة، تريد أن تنفي الإبداع عن الأدب الملتزم، أو الأديب الملتزم، أو تريد على الأقل أن تقلل من قيمة الإبداع الملتزم.. وتجعل من الالتزام قيدا ثقيلا على الإبداع.

وهذا ما أريد أن أنفيه.. وسأحاول جهدي، ألا أكون متأثراً بعاطفتي.. التي ينبغي أن أعترف منذ البداية أنها مع الالتزام.. ولكني أود أن أناقش النظرية نقاشا عقليا مجردا ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

ولا أكتمكم أنني أدرت في داخل نفسي حوارا طويلا حاولت أن أفترضه بين شخصين متناظرين.. فرأيت أن الحوار يطول جدا إذا لم نتفق على نماذج أدبية نتخذ منها محاور للحوار.. فهل أنتم معي في هذا المبدأ؟.. إذا اتفقنا على هذا، كان لنا جميعا أن نتفق أيضا على سلامة النتائج التي نتوصل إليها.. وقد يكون من السهل بعد ذلك أن نستخلص من تلك النتائج قواعد معينة تصلح فيما بعد أن تكون معايير ثابتة.. قد تقطع الجدل في هذا الأمر.. أو قد تجعل ملامح النقاش فيه أكثر وضوحا..

❖ ❖ ❖

بين شعراء الجاهلية شاعران مبدعان، أحدهما من شعراء المعلقات.. هو زهير بن أبي سلمى.. والآخر شاعر حكيم يحلم بالنبوة هو أمية بن أبي الصلت.

طه حسين

☆ حديثي عن طه حسين شائك.. لا يرضي خصومه ولا أنصاره.

وكان هذان الشاعران ملتزمين.. أما آية إبداع زهير.. فهو أن قصيدته الميمية، ظلت جديدة عبر التاريخ، عبر هذه القرون، التي تفصل بيننا وبينه. وقد صاغها صياغة محكمة مجودة، مبتعدا عن الكلمات الغريبة، كأنما كان يريدها حية على الدهر.. فهل حال التزامه بينه وبين أن يكون شاعرا لكل العهود.

قد يعترض معترض فيقول: إن شعر زهير شعر حكمة وليس شعرا غنائيا.. ولهذا المعترض أقول: متى كان الشعر الغنائي وحده هو شعر الإبداع؟ إن شعر الحكمة هو شعر التجارب الإنسانية.. وهو الشعر الاجتماعي.. وهو الشعر الذي تجتمع فيه الفكرة والعاطفة معا.. وليس كشعر الغزل مثلا الذي يعد حديثا عن العواطف وحدها.

ولو قيض لزهير أن يسلم، لوجد في المناخ الجديد آفاقا واسعة للتعبير عن نزعته الإصلاحية، ولانداحت دائرة إبداعه.

أما آية إبداع الشاعر الآخر، فهو ما روي عن استحسان الرسول ﷺ لشعره.. وهو استحسان للمبنى والمعنى، وللنهج الالتزامي.. وهذا دأبه عليه الصلاة والسلام، كما هو معروف في استحسانه لشعر الخنساء.. وهي أيضا من شعراء الالتزام.

ومن حيث المبدأ، لا يتسع المجال للاستشهاد وإيراد النماذج الشعرية أو النثرية.. فإني إنما أتحدث عن مشاهير من الأعلام الذين تعلمون من أمرهم الكثير والرجوع إلى آثارهم أمر متاح.. وقدراتهم الإبداعية لا مشاحة فيها.

❖ ❖ ❖

إذن.. لا علاقة بين ظهور الدين الإسلامي، وبين التأثير على الإبداع الشعري، ما دمنا قد وجدنا في الجاهلية نفسها نماذج من المواهب المبدعة كانت من حيث المبدأ ملتزمة بأخلاقيات معينة تشبه من بعض الجوانب المسلكية تلك التي جاء بها الإسلام، فقد جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق.

ومن هنا نستطيع أن ننطلق من قاعدة، يصح تعميمها وتطبيقها على العصور التالية بعد عصر الإسلام، هذه القاعدة في نظري، تقول بالبحث عن الموهبة، فإذا اقترنت الموهبة بالالتزام الديني والخلقي.. فإنها قادرة على الإبداع، ولن يحول التزامها بينها وبين الإبداع، بل لا يقلل منه.. إلا من حيث الحجم، لا من حيث القيمة الإبداعية ذاتها.. وأقصد بالحجم سعة المجال الأدبي.. فإن الشاعر الملتزم يتعفف عن الانطلاق إلى ميادين لا يراها تليق به، أو يخشى أن يتأثر به من لا يردعه من دينه رادع، ولا يعصمه من الفتنة عاصم ذاتي.

وغني عن القول، أن الحجم أو الكثرة الإنتاجية لا تقدم أو تؤخر في القيمة الإبداعية نفسها، وإنما يبحث الناقد عن مستوى الجودة ذاتها، وعن مستوى الإبداع، ومعروف في التاريخ الأدبي، أن من شعراء القصيدة الواحدة من بز أصحاب الدواوين الضخمة.

❖ ❖ ❖

قبل أن نذهب بعيدا.. دعونا نتفق على معنى الإبداع.. نعم، ما هو الإبداع؟ لا أريد أن أدخل في متاهات اختلاف التعريفات، إنما يكفي هنا أن أذكر تصوري عنه.. تصوري الشخصي.

إذا استطاع الأديب أن يخرج عن دائرة التقليد، إلى تجديد في الفكر، وفي المعنى، وفي الموضوع، فهو مبدع.. لأنه استطاع أن يبتكر شيئا ينفرد به ويتميز به.. ويلفت الأنظار إليه.

إذن، فهناك فرق دقيق، بين الأديب المنتج، دون أن يكون لإنتاجه أي وجه من وجوه الإبداع.. وبين الأديب المبدع.

ويصادفنا هنا سؤال: ألا ينبغي أن يكون المنتج سواء كان إنتاجه – مبدعا أو غير مبدع – ألا ينبغي أن يكون ملتزما..؟ إن الدعوة إلى الالتزام واردة، ولكنها قد لا تصل إلى نتائج حتمية.. ومن المؤكد أننا نحبذ الالتزام في كل الحالات، ولكن الحديث هنا، مطلوب عن الأديب المبدع.. وليس عن أي أديب.

ومهما يكن الرأي في الإبداع، فإنه لا يسعني القول بأن الإبداع مستقل عن الالتزام.. مادام الإبداع يتعلق بالموهبة القادرة على إيجاده.. أما الالتزام فلا علاقة له بالموهبة.. لأنه يأتي مكتسبا.. أي أنه نتيجة رياضة نفسية، يضع فيها الأديب نفسه طواعية، مختارا أن يسلك بأدبه نهجاً ينظر من خلاله إلى مجتمعه، لا إلى ذاته، ولا إلى لذّاته.. فهو عملية تضحية ذاتية. أو بتعبير آخر هو (بوتقة) يضع فيها الأديب إنتاجه كله إن استطاع، أو جلّه.. في أقل حالاته التزاما.. وهذه العملية التي يضطلع بها الأديب، إنما تشكل في حقيقتها نوعا من الرقابة الشخصية، التي قد تغدو مع الزمن شيئا كالسليقة.. إن لم تصل إلى مرحلة السليقة ذاتها.. وكما تلاحظون فإن هذه الصفة تدخل الالتزام مرحلة القيد على الأديب.. ولكنه القيد المحرك الذي لا يحول دون القدرة الإبداعية، بل يهذبها ويوجهها الوجهة الصالحة.

☆ الالتزام في الألوان المستحدثة من الأدب لن ينال من مستوى الإبداع.

إنه القيد الذي يضارع ذلك الذي تضعه الشرائع والقوانين على الحرية الشخصية لكي لا تطغى على مصالح المجتمع، فتؤدي إلى الفوضى والإباحية.. وتجتاح الحدود الأخلاقية التي اعتادها البشر منذ خلقهم الله جلت قدرته.. وميزهم بها عن الحيوان.

❖ ❖ ❖

نعم الالتزام قيد، ولكنه قيد محبب، مطلوب، ندعو إليه ونطلبه، ونقاوم كل من يقاومه، لأننا ندعو إلى الصراط المستقيم في أدبنا وفكرنا، كما ندعو إليه في سائر حياتنا.. ولكن.. هنا تبدو مشكلة.. دقيقة.. هي إلى أي مدى يتمكن هذا القيد من نفس الأديب المبدع؟ وهل المجتمع هو الذي يصوغ هذا القيد، أم أن الأديب ذاته يختاره بمحض إرادته؟

للجواب على السؤال الأخير، أعود بكم إلى ما سلف أن قلته قريبا من أن القيد إنما هو رقابة ذاتية تنبع من داخل الأديب الملتزم. وهذا الجواب يعد في الوقت نفسه، جوابا عن السؤال الأول، أي أن المجتمع لا يستطيع أن يفرض القيد الالتزامي على الأديب.. مادام هو نفسه لم يأخذ به.

وهذا القول ينطبق تماما على الوازع الديني لدى الأديب المسلم، وهو قد يكون أحيانا وازعا أخلاقيا إذا لم يكن وازعا دينيا، فالمهم هو وجود الوازع.. إذا افترضنا أن الأمر لا يرتبط بالمجتمعات المسلمة وحدها.. مع أن الحديث هنا إنما نقتصره على مجتمعنا المسلم وحده. وما دمنا نكل الالتزام في مجمله إلى الوازع الذاتي، فإن من الصعب

أن نضع حدودا أو رسوما للالتزام.. لأنه سيختلف في هذه الحالة من مبدع لآخر.. ولكن تظل هناك دائرة تضم كل التفاصيل في نطاقها، هي مراعاة مصلحة المجتمع..

هذه نقطة تحتاج إلى أن أضرب لها مثلا.. فإن الأديب الملتزم، يحرص أن يتحرك في نطاق التزامه...

أظنكم معي أننا إذا ذهبنا نحاسب أدباءنا الملتزمين بهذا الميزان الحساس، فستخلو القائمة أو تكاد.. فأي الرجال المهذب؟ ومن ذا الذي ما ساء قط؟.

أقول كما قال شاعرنا:

«كفى المرء نبلا أن تعد معايبه»

الالتزام إذن مسألة نسبية، ينبغي أن نأخذه باعتدال. فلا نضيق معاييره.. بحيث نخسر أنصاره وأنصارنا.. ولا نوسع هذه المعايير بحيث نفقده معناه الذي ندعو إليه ونرغب فيه، حفاظا على تماسك مجتمعنا المسلم، ولكي نحفظ لهذا المجتمع فكره المبدع.. إيمانا منا بأهمية الفكر، وبأهمية الإبداع معا...

ومن وجهة نظري.. لو سئلت ما هو الشرط الأول والأهم الذي ينبغي أن نضعه ونتمسك به لمواجهة التفريق بين الأديب المسلم المبدع الملتزم وبين غيره..؟ لقلت: إن هذا الشرط في نظري هو ألا يتخذ من فكره وقلمه معول هدم للأسس الإسلامية القويمة، بأي شكل من الأشكال.

❖ ❖ ❖

لم يغب عن ذاكرتي - كما قلت من قبل - ذلك النقاش الذي دار بحرارة في عهد من عهود الأدب القريبة في مصر، وفي غير مصر من العالم العربي عن الالتزام.. وإن كنت لا أزعم أن تفاصيل هذا النقاش بحذافيرها كانت ماثلة في خاطري. ولكن هناك بقايا من هذا النقاش ترسبت في النفس..

ولا أزعم أيضا أن هذا النقاش قد كف عن التداول.. فهو لا يزال واردا.. بدليل اختيار هذا المركز لهذا الموضوع لكي أتحدث فيه..

لكن الذين تحاوروا في هذا الأمر من قبل كانوا متأثرين بأصداء معينة في الأدب الغربي، وربما عن الأدب الوجودي بالذات.. ولم ينظر في الفكرة من حيث مبدؤها إلى الجانب العقائدي، ولكن لوحظ فيها أثر الفكر على المجتمع سلبا أو إيجابا.

وبرغم ما يبدو من علاقة الفكر على نحو ما، بما أتحدث عنه اليوم، إلا أننا ينبغي أن نلاحظ الفرق الواضح، وهو نقطة الانطلاق، فنحن إنما ننطلق من فكرة ذات ارتباط وثيق بالعقيدة التي يجب أن ندور في محورها.. في كل مجالات حياتنا..

❖ ❖ ❖

بطبيعة الحال، ليس من هدف هذا الحديث أن يستكثر من النماذج، بقدر ما يهمني أن أعطي أفكاري التي أطرحها اليوم مزيدا من الوضوح.. كما يهمني أن أزيل فكرة قد تسيطر على البعض، هي أن الالتزام يحول دون الإبداع..

هذا خطأ مشهور، سبق أن تعرضت لنفيه فيما سبق من حديثي.. ولكني أعود إليه، بعد هذه الجولة، لأشبعه بقدر الإمكان حديثا، ولعلي أيضا أشبع المتشككين إقناعا...

لقد اتفقت كلمة المسلمين على الأئمة الأربعة، واستمدوا منهم فقه دينهم.. وكما نعلم فإن من بين هؤلاء الأئمة الفقهاء، إماما واحداً، له آثار أدبية.. هو الإمام الشافعي.. فكما نعلم جميعا أنه كان شاعرا.. وله ديوان مطبوع.. وفي هذا الديوان قصائد تتسم بالإبداع.. لا يزال من الناس من يحفظها ويرددها، ويستسيغها صياغة ومعنى.

إن غزارة علم الشافعي، وفقهه، وتحقيقاته، لم تحل بينه وبين الإبداع.. إن الحائل الوحيد، إنما نبع من داخل الشافعي نفسه.. لقد ردع نفسه عن الشعر لئلا ينصرف إليه همه، ولئلا يكون شغله الشاغل، فيتغلب الشافعي الشاعر على الشافعي الفقيه، ولم يكن هذا هدفه.. ولذلك قال قولته الشهيرة:

ولولا الشعر بالعلماء يزري
لكنت اليوم أشعر من لبيد

ونلاحظ أن الشافعي لم يقل أن الشعر يزري بالناس، وإنما نص على الفقهاء أو العلماء، حتى لا يذهب به الشعر إلى فنون من القول، تأتي على حساب علمه، ونحن نعلم أن الشافعي كان حريصا جدا على أن لا يشغل نفسه ببصلة، لكي لا تفوته من العلم مسألة.

ويفتح لنا الشافعي الفقيه الحديث عن الفقهاء الأدباء، وهم في الواقع غير قليل.. وفي دنيا الإبداع منهم أمثلة ونماذج تعرفونها، فإن ذكرتها هنا، فإنما أذكرها من باب التذكير بها، ومن باب الاستشهاد إن كان لابد من مزيد من الاستشهاد.

ومن المعروف أنه كان في المدينة وفي غيرها شعراء فقهاء، وأنه كان من هؤلاء الفقيه الشاعر ابن أذينة.. عروة بن يحيى (ت : نحو ١٣٠هـ)

وقد خاض فيما يخوض فيه الشعراء من غزل وتشبيب.. فما أزرى ذلك بمكانته ولا بقبول أحاديثه.. وتعلمون أن هناك من اعتنى بأدب الفقهاء.. وألف في أشعارهم، فعل ذلك في عصرنا الفقيه الأديب الشاعر الشيخ (عبد الله كنون) من المغرب.. يرحمه الله، وفعله أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي (أبقاه الله). أقول ذلك بغض النظر عن مدى الإبداع في أشعارهم، ولكن من المؤكد أن هناك إبداعا، وإن الأديب الفقيه لم يحل التزامه بينه وبين القدرة المبدعة... وإن الفقهاء لمظنة الالتزام الشديد.

وكان بودي أن أستعرض معكم مواقف عدد من مشاهير أدباء العصر ممن نسميهم عمالقة الأدب، وهم جديرون حقا بهذه التسمية.. ولكن عملية الاستعراض ستكون طويلة، وستخرج هذه المحاضرة من حيزها، كما أن عملا كهذا يجدر أن يتم عن طريق دراسة معمقة، ترتكز على بحوث ومصادر ونماذج.. وهذا أمر يختلف بطبيعة الحال، عن هذا الحديث العفوي، الذي كنت كتبته لكم بعيدا عن بلدي، وعن مكتبتي، وإنما أستحضر ما أستحضر عنه، من الذاكرة.. وهي كليلة.

ولكن هذا لا يمنع من أن أستعرض معكم بعض أسماء

الرافعي

أولئك العمالقة في حدود ضيقة بقدر الإمكان، لئلا أصل بكم إلى درجة الإطالة فالإملال...

العقاد، كاتب إسلامي، وهو في مجمله ملتزم..

العقاد

☆ يخطئ من يقول : إن الأخلاقيات التي وضعها الإسلام على الفرد المسلم ضيقت دائرة الإبداع.

وشاعر خاض فيما يخوض فيه الشعراء.. وقد أبدع فيما كتب، وله من شعره ما يصطبغ بالإبداع.. أهدى إلى المكتبة العربية تراجم إسلامية رائعة، ودافع عن الإسلام فأحسن الدفاع.. فهل يقلل من مكانة التزامه، ما قد يشوب أدبه من شوائب.

❖ ❖ ❖

وقد يذهب بعضهم إلى أن الرافعي يرحمه الله، من أكثر الأدباء الشعراء العمالقة التزاما، إن لم يكن أكثرهم على الإطلاق.. وما من شك في أن الرافعي كان شديد الحماسة لالتزامه، يصدر فيما يصدر من أدبه عن منهج إسلامي، حتى في غزلياته.. فهو القائل:

قلبي يحب وإنما
أخلاقه فيه ودينه

وقد دخل معاركه تحت راية القرآن.. ولكن أدب الرافعي كان متعدد الألوان، فهو كاتب غزل. له في النثر (السحاب الأحمر) و (أوراق الورد) وغيرهما، وله في ديوانه قصائد غزلية.. ولكل ذلك في حياته أقاصيص.. فهو لم يتجه بفكره وأدبه كله إلى منهجه الالتزامي.. وهو لا يستطيع أن يكون إلا كما كان.. فهل يصح أن نحاسبه على كل كلمه قالها..؟ بما في ذلك مقالته عن فتاة الملهى (في اللهب ولا تحترق) هل نفعل ذلك متناسين ما وهبنا الرافعي من التزامه..؟ ومن دفاعه المخلص عن منهجه..؟ كلا .. بطبيعة الحال.. وإنما يكفينا منه ما أعطى.. فهو لم يحاول النيل من صروحنا الإسلامية شيئا.. بل لقد بنى.. فإن نشيده المشهور يصح أن يكون نشيد الأمة

الإسلامية كلها.. صحيح أن الكلمة المترفة المتألقة، لم تسمح لأدب الرافعي أن يكون أدبا جماهيريا في مجمله.. ولكن لولا هذه الكلمة المترفة المتألقة، لما ميزنا شخصية الرافعي، ولما وضعناها حيث هي من عمالقة الفكر والأدب. لقد حاول خصوم الرافعي، أن يهدموا مجده، عن طريق التشكيك في تصرفاته الشخصية.. ولكن التاريخ الأدبي لم يصغ لأقاويلهم.. فإنه إنما يحكم على أدبه وفكره فحسب..

أما وقد ذكرت الزيات، والعقاد، والرافعي.. فقد أصبح من الصعب أن لا أذكر شيئا عن طه حسين.. وكان بودي لو تغاضيت عنه.. فإني أعلم أن الحديث عنه شائك.. وإنني حينما أتحدث عنه، لا أرضي خصومه، ولا أنصاره...

ففي غمرة تأثره بالثقافة الفرنسية.. وأراء المستشرقين، جاء كتابه (في الشعر الجاهلي)، وكتابه (مستقبل الثقافة في مصر)، ثم فاء طه حسين رحمه الله إلى نفسه، فجاءت كتبه. (الوعد الحق) و(مرآة الإسلام)، و(على هامش السيرة)...

❖ ❖ ❖

تكلمت حتى الآن عن الأدباء.. ولم أتكلم عن الأداة أو الوسيلة التي يتخذها الأديب للوصول إلى القارئ أو المتلقي ليبلغه تأثيره.. اللهم إلا أداة واحدة هي الكتاب، وقد جاء الحديث عن الكتاب حديثا عرضيا، وليس مقصودا لذاته.. ومهما يكن الأمر، فالكتاب عندي وسيلة شخصية، أي أن الكتاب هو الشخص.. كما نقول: الأسلوب هو الكاتب.

وإذا كان الكتاب، هو الوسيلة الوحيدة، التي كانت معروفة قديما للأدب المكتوب، الذي يتاح للعموم الاطلاع عليها.. فقد جاءت الصحافة وسيلة جديدة، وكان منها ما تخصص بالأدب، أو الفكر أو الشعر، فجاءت المجلات الأدبية..وسيلة متاحة لعدد من الأدباء، وليست خاصة بواحد معين.. فما مدى الالتزام في المجلات الشهيرة التي تركت دويا وتأثيرا في المجتمع العربي المسلم؟

من وجهة نظري، أستطيع أن أقول، وأنا مطمئن: إن المجلات التي أصدرها الشيخ (محب الدين الخطيب) كانت ملتزمة إسلاميا إلى أقصى الحدود المستطاعة.. وقد ضمت آثاراً كثيرة محضها صاحبها في سلسة (الحديقة) التي عكست ألوانا من الأدب الملتزم. وقد افتقدنا بعد احتجاب هذه السلسلة، أدبا رصينا، عربي النهج سليم المعتقد.

إن الشيخ (محب الدين) يعد مثلا للأديب المسلم الملتزم، وها نحن نرى أثره الجيد في الشيخ (علي الطنطاوي)، وتعلمون أن الشيخ الخطيب، هو خال (الشيخ الطنطاوي) (أبقاه الله)، الذي ساهم في تحرير مجلة (الرسالة) الزياتية.. بل لقد أشرف على تحريرها في بعض الفترات.

لقد خلفت الرسالة، مجلات الفتح والزهراء.. وغيرهما من أمثالهما، وتميزت عنها بأنها استطاعت في بعض مراحلها أن تضم شتات أقلام عمالقة الأدب والفكر والشعر في مصر وفي العالم العربي. ولكن لم تبلغ في التزامها ذلك المبلغ الذي بلغه الشيخ الخطيب.. إلا أن النهج الإسلامي، كان واضحا أو غالبا على صفحاتها، خاصة حينما ينضم إلى تحريرها أديب ملتزم بارز النهج، مثل الطنطاوي، (رحمه الله).

الحديث عن (الرسالة) لا يبعد عن الحديث عن (الزيات)، وهذا سبق أن ألمحت إليه، ونستطيع أن نقول باعتدال هذه المجلة وسلامة طريقها.

❖ ❖ ❖

إن من المهم طبعا أن نبث الدعوة إلى الأدب الملتزم، وأن نبذل في سبيلها كل ما نستطيع من جهد.. وأن تدخل هذه الدعوة في العملية التربوية، وأن تتولاها وسائل إعلامنا، وأن تخضع هذه الدعوة لدراسات موسعة تعقد من أجلها المؤتمرات والندوات.. ولكني لا أحب أن تأخذ الدعوة شكل مذهبية فكرية، تستثير عليها المذاهب المضادة، يكفي أن نوقظ الوعي العقدي.. أعني وعي العقيدة الإسلامية التي تعكس الالتزام الأكبر الذي ينبغي أن تصدر عنه جميع تصرفاتنا. والأدب جزء من هذه التصرفات، وسنجد أننا حققنا الالتزام التلقائي الذي نتمناه، لا الالتزام المتكلف الذي قد يصدر عن غير اقتناع تام.. ذلك أننا نجد على الساحة العربية العريضة كثيرا من المنتمين إلى بعض التيارات والمذاهب الأدبية، ينتمون إليها إما استهواء، وإما من باب ركوب الموجة الرابحة.

وإذا حققنا تحبيب الالتزام التلقائي إلى أرباب الأقلام، وتحقق توفر الأديب المسلم الملتزم، سنجد أننا وفرنا القدرة على الإبداع الملتزم في جميع ألوان الأدب، القديمة والحديثة على السواء... أي أننا سنجده في القصة والرواية والمسرحية... وغيرها.

❖ ❖ ❖

أما بعد...

فقد طرحت بين أيديكم خواطري وأفكاري، عن هذا الموضوع الحيوي طرحا عفويا، فجاءت مبعثرة.. لا ينظمها سلك، وقد قدمت إليكم عذري، وكررته على مسامعكم.. ولكني سأحاول أن أخرج ببعض الكليات، بغض النظر عما ورد منها خلال حديثي أو ما لم يرد.. فعسى أن تجدوا في هذا التركيز بعض التعويض عن هذه الثرثرة الطويلة التي تطرق إليها الحديث:

١ - إن الالتزام مطلب أساسي تفرضه عقيدتنا، يجب أن يتوفر في المجتمع كله، ولدى جميع العاملين به.

٢ - وينبغي أن يكون مطلبا مؤكدا لدى المفكرين والمنظرين والأدباء والكتاب والإعلاميين لعلاقتهم بالتوجيه الاجتماعي.

٣ - إن الالتزام لا يتعارض مع الإبداع، لأن الإبداع ركيزته الأولى الموهبة.. والموهوب قادر على الإبداع الملتزم.

٤ - إن الالتزام قد يضيق حدود الإبداع، ولكنه حتما لا يضيق به قدرة على المجال الرأسي، إن فاته المجال الأفقي... فهو يحقق شموخا إن فاته الشمول.

٥ - إننا إذا حاولنا أن نجعل الالتزام مذهبا فكريا، فإنا نحجر حيزه، ونحرض عليه، فالالتزام في نظري دعوة وليس تنظيما.

٦ - إن المحاكمات الأدبية التاريخية التي تركز على التعرف على مدى الالتزام عند أصحابه أمر لا طائل تحته.

٧ - إن المعيار الصحيح ينبغي أن يرتكز على قبول الفكر قبولا عاما.. ما لم يدع إلى ضلال أو انحراف.

٨ - إن الإبداع عملية فكرية منفصلة عن الالتزام.

٩ - إن الالتزام لا يستغني عن الإبداع.. ليكون مؤثرا وقادرا على الاجتذاب.

١٠ - إنه لا يمكن أن يحكم على الأديب من خلال نماذج محدودة من آثاره، لأن الفكر يتجدد والخواطر تتناقض. والأديب ذاته يمر بمراحل فكرية متعددة.

١١ - إن السوق الأدبية تشمل الغث والسمين، وإن المتلقي هو الذي يملك الاختيار، وإن اختياره يتوقف على مقدار الوعي الذي يزوده به المجتمع، أو المناخ، أو التربية.

١٢ - إنه من الصعب وضع معايير معينة للعمليات الإبداعية في ألوان الأدب لأن العملية النقدية ذاتها معقدة. ولكن نجاح العمل الأدبي الملتزم - مهما كان نوعه - إنما نتقبله ما لم يتعارض مع معاييرنا الالتزامية العامة، مع اشتراط توفر نسبة نرتضيها من الإبداع ■

الطنطاوي

☆ الشرط المهم ألا يتخذ الأديب من فكره وقلمه معولا لهدم الأسس الإسلامية القويمة.

❖ ألقي هذا الموضوع في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ونشر في المجلة العربية في حلقتين الأولى في عدد شهر شوال ١٤١١هـ، ص٢٨، والثانية في شهر ربيع الآخر ١٤١٢هـ، ص٢٤. وقد اختصرنا بعض الفقرات نظرا لطول البحث (التحرير).